

## في أعقاب خطاب بوش:

أصبح المحور الشرقي ضرورة حتمية كبدائية

يستبعد المرء كثيرا أن يستمر هذا الانقلاب الذي تحول معه العالم في القرن الحادي والعشرين المتحضر إلى غابة معتمة لا صوت فيها إلا للطائرات من طراز إف ١٦ وطراز ب ٥٢ وقذائف عيار سبعة أطنان وصواريخ كروز وخطاب بوش بن بوش عن حالة الاتحاد وتصريح شارون عن ندمه على عدم قتل الرئيس الفلسطيني أيام حصار بيروت.

ليست هذه سياسة. والقاعدة المتعارف عليها في التاريخ البشري هي أنه حيث تتوقف السياسة تكون الحرب. وهكذا وضعت الولايات المتحدة العالم في أجواء الترقب.. ترقب الحرب والضرب.. بعدما مهدت لذلك الترقب بالقول إن الحرب ضد الإرهاب قد تستغرق أكثر من عشر سنوات وتدور داخل ستين دولة وتستخدم فيها أساليب خفية وأخرى ظاهرة. ثم قدمت الآلة الحربية الأمريكية أمام المشاهدين استعراضها الإرهابي النموذجي بمناسبة ما أسمته حربها ضد الإرهاب في أفغانستان. ودأب المسؤولون الأمريكيون على إتحاف الناس بالتصريحات التي تقشع لها الأبدان: تصريحات من قبيل (من ليس معنا فهو ضدنا حتما) ومن قبيل وصف العراق وإيران وكوريا الشمالية بأنها (محور الشر.. وسوف تطالها يد العدالة الأمريكية)!

كان وقع خطاب الرئيس الأمريكي على الجميع أشبه بوقع مشهد الكابوي المتعجرف الذي يداهم قرية صغيرة على صهوة حصانه وهو يطلق النار على المنازل تارة وفي الهواء تارة أخرى. وكان فيه من الإدلال بالقوة ومن التهديد والوعيد قدر لا يمكن معه اعتباره نصا سياسيا، لا سيما أنه خلا من المنطق تماما. وقد تعددت التعليقات التي تستكره. فقال مسؤول عراقي ((إنه يبعث على السخرية))، وقال السيد خامنئي أكبر رأس في إيران ((إن الكلام تعبير عن تعطش صاحبه للدماء))، وقالت وكالة الأنباء الكورية ((إنه استمرار لسياسة الولايات المتحدة العدوانية ضد كوريا)). أما الدول الكبرى الأخرى فأجمعت على إدانة الخطاب واستنكاره، واستخدمت كل منها الصيغة التي تناسبها. فقالت الصين إنها ((لا تؤيد استخدام مصطلحات كهذه في العلاقات الدولية)). وقال وزير خارجية بريطانيا ((إن الرئيس بوش أدلى بهذه التصريحات على أعتاب الانتخابات النيابية التي سيخوضها حزبه بعد شهرين أي أنها كلمات موجهة إلى الداخل الأمريكي)). وقال الاتحاد الأوروبي على لسان وزير خارجية إسبانيا التي تترأس الاتحاد حاليا ((إن الاتحاد الأوروبي سيعمل بشكل عادي مع إيران بمعزل عن تصريحات بوش)). وقالت وزيرة خارجية السويد ((هذا جنون)).

### حتى أنت يا أولبرايت؟

ومن عجائب الملابس أن مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة انتقدت بدورها خطاب بوش، وقالت إنها كانت موشكة إبان عهدها على الوصول إلى معاهدة مع كوريا الشمالية حول سياسات الذرة والتسلح. ومعنى ذلك أن بوش دمر ما كانت أولبرايت قد أنشأته بدلا من أن يبني عليه ويضيف إليه.

وعلى الرغم من هذا الاستنكار الواسع فإن الولايات المتحدة تكابر في دعاواها وتهديداتها، وتبدي عدم مبالاة تامة بمواقف الآخرين وبآرائهم على نحو لم يفعله غير قلة من الطغاة في

التاريخ. فهي أسندت ظهرها إلى ترسانة صواريخها البالستية ورؤوسها ذات الدمار الشامل وإلى أساطيلها الجاثمة فوق آبار النفط الخليجية، ورفعت قدميها ببسطارها العسكري في وجه كل من يجادلها الخطاب. ومن هؤلاء جمعيات حقوق الإنسان التي شعرت أنها لن تعود لها أية مصداقية في العالم إذا لم تندد بوضع أسرى القاعدة وطالبان في سجن غوانتانامو وسجون أفغانستان. ففي غوانتانامو حشر الأسرى في أقفاص وقد غميت عيونهم وقيدت أيديهم وألبسوا ملابس الإعدام ذات اللون الأحمر. وفي سجون أفغانستان التي تحدثت عنها سيدة شجاعة فاضلة تابعة للصليب الأحمر بجنيف ترك الأسرى دون ملابس ودون أغطية ودون علاج. ومات بعضهم جوعا وبردا ومرضا.

وفي مقابل ذلك كله وقف وزير الحرب الأمريكي يتكلم مجادلا أن أسرى القاعدة سجناء مجرمون لا أسرى، وأنهم ليست لهم أية حقوق يستحقونها. أما حامد قرازاي فذهب إلى كل من أمريكا وبريطانيا متوسلا (حسب الموضة التي اخترعها بعض العرب) كي يوافق الحليفان الأمريكي والبريطاني على احتلال كل شبر وكل فتر من أفغانستان لأن الرئيس الألعبوبة الأمريكية لا يستطيع أن يحكم إلا إذا حرسه السادة الذين نصبوه حراسة لا تغفل ولا تنام!! ولكن الحليفين رداه خائبا لأنهما لا يرغبان بحال من الأحوال أن يخاطرا بحياة عساكرهما. فأما إذا تطلب الأمر صواريخ كروز تطلق من بوارج في صدر البحر أو قذائف سبعة أطنان تلقى من طائرات في كبد السماء فالحليفان جاهزان. وأما إذا كان المطلوب عساكر على الأرض تتعرض للموت، فلسان حال الحليفين: ولماذا جننا بك إذن يا ثقیل الدم، ولماذا نجىء بأمثالك عادة؟

لكل دولة دروسها المستفادة من تاريخها الخاص. وأحدث درس في حافظة بريطانيا الاستعمارية هو أن عليها أن تلمم قواتها لأنها لم تعد الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. وأحدث درس في حافظة أمريكا الإمبريالية هو ما دعتة في الماضي غير البعيد ضرورة (فتنة الحرب)، أي سحب القوات الأمريكية من المستنقع وجعل الفيتناميين الجنوبيين يحاربون الفيتناميين الشماليين، بعد أن تعالت صيحات الشارع الأمريكي منددا بالحرب ومعترضا على التضحيات. وذلك ما لم يفهمه قرازاي الذي يظن نفسه أعز لدى أسياده مما كان نظام فييتنام الجنوبية العميل.

### توافق بوش وشارون القديم

وما يهمننا الآن هو أن نتساءل: ما العمل على كل حال بعد أن كشف بوش عن هذه الملامح من نواياه التي هي مجرد مرحلة من مراحل العزم على تنفيذ الاستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة، وهي مستوحاة في خطوطها الرئيسية من الخيال العقيم للجنرال شارون؟؟

لقد سبق لكاتب هذه السطور أن نشر في أسبوعيات الاثنين التاسع من نيسان إبريل ٢٠٠٠، أي قبل قرابة عامين اثنين، مقالة بعنوان: المحور الشرقي.. خيار أم ضرورة؟ وسوف أنقل عنها بالنص بعض فقراتها، مع تأكيدي أنني بعيد جدا جدا عن خيلاء الذين يحبون أن يقولوا: ألم أقل لكم. ففي تلك المقالة قلنا:

" إن منظمة التحرير الفلسطينية ولبنان وسوريا والعراق وإيران كلها مستهدفة عسكريا. وليس أمامها إلا أن تعد نفسها لهذا الاحتمال القوي. وليس معنى هذا أن مصر مستثناة، بل ولا الأردن ولا السعودية، ولكن استهداف تلك البلدان يكون عبر أساليب أخرى وعلى مدى زمني متراخ. وعلى قدر ما نفهم الشخصيات الإسرائيلية القيادية فإن أفكار شارون تتجه أكثر ما تتجه إلى إيران والعراق ولا نشك أن التحضير لضربهما جار على قدم وساق. وقد يكون الحديث عن

ذلك بندا من بنود المحادثات بين بوش وشارون في واشنطن. ولعلها السر الأكبر في التوافق الملحوظ الذي ظهر عليهما في نهاية محادثتهما. وبذلك يحقق بوش منهجه في استخدام الآخرين لتنفيذ سياساته دون أن تنخرط الولايات المتحدة فيما لا لزوم لانخراطها فيه. كما يحقق هاجسه وهاجس أبيه المستمر بالقضاء نهائيا على روح المقاومة في العراق، ولا ننسى أيضا أن صاحب فكرة الاحتواء المزدوج مارتين إنديك ما زال يتمتع بمكانته في وزارة الخارجية الأمريكية سفيراً في تل أبيب. فالسياسة الإسرائيلية أبدت عموماً قلقها المتناهي حيال صفقات الأسلحة الروسية لإيران... وقد فشلت المساعي الأمريكية الرامية إلى إقناع بوتين بعدم تنفيذ الصفقات التي تفاوض عليها مسبقاً. كما أن زيارة مادلين أولبرايت قديماً إلى كوريا الشمالية كانت تهدف إلى إغلاق هذا الباب للتسليح المتاح لسوريا والعراق وإيران.

وسوف تتفاعل هذه المخاوف الأمريكية الإسرائيلية المزمنة مع هوس شارون بالمغامرة العسكرية ورغبته في أن يدعى من جديد بطل إسرائيل. "

### استهدفوا جيراننا ولا تستهدفونا

هذه الرؤية التي لم تغفل حتى عن الإشارة إلى كوريا لم تتطلب ذكاء خاصاً للتوصل إليها. فيكفي أن يكون المرء متابعاً بشيء من اليقظة لكي تتجلى أمامه الاستنتاجات شبه اليقينية التي تكاد تشبه أجوبة المسائل الرياضية.

فها هو الرئيس الأمريكي، الذي يقرأ من مذكرة التعليمات التي أعدها له الحكام الحقيقيون لأمريكا، يتكلم عن معاقبة العراق وإيران وكوريا بينما قواته تعمل في أفغانستان وفي الفلبين. وذلك كله مجرد مقدمات. والبقية ستأتي.

ما المانع الذي أعاق ويعيق جعل هذا المحور الذي أشرنا إليه، والذي هو غير قائم على الإطلاق، والذي يعرف أصحابه ما الذي يراد بهم، محورا حقيقيا مؤهلاً للدفاع عن نفسه واجتذاب جميع أولئك الذين تعيش فكرة تدميرهم في ذهن بوش بن بوش لا سيما باكستان التي حركوا الهند لاستنزافها مبدئياً.

إن الأمريكيين يعرفون أن المحور غير قائم. ومع ذلك فهم مصممون على النظر إليه بل وإلى المنطقة كلها هدفاً واحداً في خرائط عملياتهم وبنك خططهم المجهزة والاحتياطية.

والسؤال الذي أثرناه منذ نشر مقالنا القديم وهو " هل هذا المحور بالتالي خيار أم ضرورة "، أجبتنا عليه سابقاً متزودين بثلاثة أرباع يقين: إنه ضرورة لا خيار. والآن لم يترك خطاب بوش بن بوش مجالاً لأي شك يخامر أي إنسان. فالضربات قادمة. وهي تستهدف المنشآت المتقدمة في بلدان المنطقة سواء العسكرية منها أو المدنية. والسبب مزدوج: أن لا يختل الميزان الذي أصبحت الولايات المتحدة بمقتضاه ذات سيطرة منفردة في المنطقة، وأن لا يملك العرب ولا المسلمون سلاحاً يحقق توازن الرعب مع إسرائيل، وبالتالي تعود إسرائيل إلى حجمها الحقيقي.

إن استمرار أصحاب القرار في دأبهم على تضييع الوقت في محاولات إنكار وجود محور، أو في محاولات الإيحاء الساذج والتافه والوضيع أمام الولايات المتحدة بأن " لا تستهدفونا، فنحن سنكون عوناً لكم على استهداف جيراننا " أو " إذا تركتمونا في حالنا فنحن نعدكم أن لا نرفع عيوننا خارج الدائرة التي حددتموها لنا "، هو مسلك فاشل على الصعيد العملي، لا يغير ولا يبديل شيئاً، بقدر ما هو غباء مفرط وخيانة لأمانة المسؤولية. والذين دأبوا على هذا المسلك

قد يخيل إليهم أنهم كسبوا شيئاً من الوقت لأنفسهم، ولكن حقيقة الأمر أن توقيتات ضربهم متعلقة بالخطة العامة لضرب المنطقة كلها، وليست متعلقة بسياسات هؤلاء الذين يبالغون كثيراً في تقدير حكمتهم (وفي حقيقة الأمر انتهازمهم).

### لا شيء غير التبريد

في ظل هؤلاء المسؤولين دخلنا عصر انحطاط لا سابق له في حياة الأمة غير عصر ملوك الطوائف الذي ترتب عليه الانهيار الكامل وقيام الفرنجة بصب الرصاص المذاب في عيون الأسرى.

وفي ظلهم لم يبق بلد واحد لم يستنزف قوته وثروته في صراع مع البلد الشقيق الذي يجاوره، حتى تولدت ثارات لا شفاء منها وضاعت الثروات الكبيرة، ولم يفز أحد من هؤلاء المبددين بطائل، فقد لعب الأجنبي على غيبتهم وبلاهم وانهزمهم وفسادهم ليجعلوا دورهم كله يتلخص في كونهم أدوات للتبريد.. التبريد على الملذات والتبريد على المظاهر الفارغة، والتبريد على الحروب التي لا ينتصر فيها أحد وينهزم فيها الجميع أمام الأجنبي.

من المتوقع أن يلعب سلاح الجو الإسرائيلي دوراً كبيراً في معارك أولى حروب القرن كما أسماها بوش بن بوش. وقد تفاجأ المنطقة بعمليات دراماتيكية تشمل عدا إيران والعراق سوريا ولبنان. ومن المتصور أن تستثنى كوريا التي تكمن حقيقة القصد الأمريكي من تهديدها في عزلها عن بيع الصواريخ أو الأسلحة المؤثرة إلى سوريا أولاً وقبل كل بلد. وسوف تتوقف السيناريوهات اللاحقة على نوع التصرف الذي يقوم به المسؤولون المعنيون. فإذا استمروا في مسلك (اضرب جاري واستثنيني) فسوف يتناوب الأمريكيون والإسرائيليون ضرب الجميع عسكرياً أو على الأقل اقتصادياً، وسوف تتولى الولايات المتحدة في هذه الأثناء نقل نفط شبه الجزيرة العربية كله خاماً إلى آبارها الناضبة في الغرب.

### في الاجتماع القادم

أما عن فلسطين في الشهور القليلة القادمة فالأمر لن يخرج عن احتمالين، فقد يتفق شارون وبوش في اجتماعهما القادم يوم السابع من شباط الجاري على الدور الجديد للمشاركة الإسرائيلية في الضربات المقبلة للعراق وإيران ويشترط شارون لذلك تأمين ظهره بإطلاق يد قواته المسلحة بمعونة الترسانة الأمريكية المخزونة في إسرائيل، من أجل إنهاء المقاومة بسلسلة متلاحقة من الضربات الكبرى. أو يتفان على تسكين الوضع مؤقتاً، من خلال تشجيع الاتصالات والحوارات التي تشيع جواً كاذباً من الهدوء والتفاهل وترضية الدول التي لم توافق على شطط بوش وعلى دفعه الأمور إلى اليأس المهدد بالانفجار.

وفي الحالتين كليهما، يلاحظ أن الروس والصينيين، اللذين يفترض أنهما القوتان العظيمتان المعنيتان بما يجري في القارة الآسيوية، بقيتا أسيرتي قرار اتخذته كل منهما منذ بعض الوقت، بأن تهادنا الولايات المتحدة وأن تستفيدا من عروضها الخاصة بالاقتصاد والأسواق، وأن تستمرا في سرقة ما يتاح لهما سرقة من التكنولوجيا الأمريكية بواسطة إسرائيل. ولهما العذر طبعاً حينما تحدث كل منهما نفسها قائلة: إن المرء لا يستطيع أن يكون عربياً أو إسلامياً بأكثر من أهل تلك البلاد.

هل سيكون هناك جديد في التفكير والعمل، أم سينتظر كبار المسؤولين اليوم الذي يصب فيه الرصاص في عيونهم؟

إن بين العجز وبين الحركة عزمة واحدة، لا أحسب أنها حرام على العرب والمسلمين!؟

